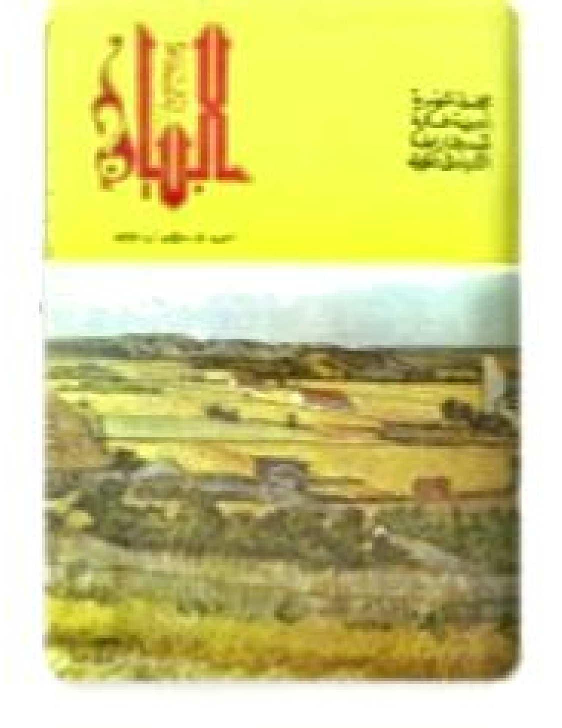


البيان_الكويتية

عنوان المقالة: أهمية علم التاريخ

بقلم: فيصل حنبلي

رقم العدد: 41

تاريخ الإصدار:1 أغسطس 1969

انقضى ذلك الزمن الذي اعتبر فيه التاريخ مجرد سرد للحوادث ، لكي يحفظ ذكرى الماضي ويمجد الافعال البارزة في حياة الاشخاص والامم او انه فرع من فروع الادب يدرس للتسلية وامتاع النفس . وظل التاريخ يتداوله الادباء حينا والباحثون المدققون حينا آخر حتى تغيرت نظرة العلماء اليه .

والتاريخ انما هو تفسير هذه الحوادث ، واهتداء الى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان .

وحينما اخذ الانسان البدائي منذ فجر المدنية يقص على ابنائه قصص اسلافه ممتزجة باساطيره ومعتقداته ، بدأ التاريخ يظهر الى حيز الوجود في صورة بدائية اولية وبدأ الاحساس به يتكون في ذهن البشرية منذ اقدم العصور وتدرج التعبير عن التاريخ مختلطا اولا بعناصر من الفن كالرسم والنقش على الحجر ، وعندما سارت البشرية قدما في مضمار الحضارة في شتى اساليبها وصورها ، رويدا رويدا اخذ التاريخ يشكل اساسا جوهريا في تسجيل موكب البشرية الحافل ، اذ هو المرآة او السجل او الكتاب الشامل الذي يقدم لنا الوانا من الاحداث وفنونا من الافكار وصنوفا من الاعمال والاثار .

ولكي ندرك اهمية الماضي وضرورة دراسة التاريخ فلنفترض جدلا اننا استطعنا بطريقة ما ان نقطع صلتنا نهائيا بالماضي ، واننا امكننا ان نحرق دور الكتب ، وندمر كل آثار العمران الراهنة وننسى انفسنا ، فماذا ينتظر ان تكون عليه حال الانسان ومصير الحضارة بعدئذ ؟ في الاغلب سيحاول الانسان ان يعود لكي يبدأ من جديد ، اشياء تشبه او تختلف عما كان قد بداه منذ الاف السنين . حتى يصل الى مستوى سواء اكان قريبا ام غير قريب في المستوى الذي قطع عنده حياته بماضيه السحيق . فماضي الشعوب وحاضر الانسان حافل بشتى الصور وهو عزيز عليه في كل ادواره سواء اكانت عهود المجد والقوة او الرفاهية ام عهود الكوارث والالآم والمحن .

وعلى ذلك فاننا نجد انه لا غنى للانسان عن دراسة ماضيه باعتباره كائنا اجتماعيا فبقي عليه ان يعرف تاريخ تطوره وتاريخ اعماله وآثاره ، طويلة عن حوادث ماضية او معاصره . وتتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على بعض الاسس الجوهرية .

فاولا — ينبغي ان يفحص نوع المادة التي استقى منها الباحث معلوماته اهي نقوش او اثار قديمة معاصرة ثبتت صحتها وصحة معلوماتها .

ثانيا — تتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على قدرة الباحث على الدرس والبحث وقدرته على نقد ما تحت يده من الاصول والمصادر والمراجع ، يختلف الباحثون في النقد وفي استخلاص الحقائق بحسب



اختلافهم في الفهم والتفسير والاستنباط .

ثالثا — تتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على بعد الباحث عن التحيز والاهواء ، ومطابقة للواقع بقدر المستطاع . ويمكن القول بان قيمة التاريخ المكتوب تتحدد بناء على ثقافة الباحث والمامه بطريقة البحث التاريخي ، وبناء على استعداده الشخصي ومكانته . وكثير من كتب التاريخ تعد من امتع ثمرات العقول

واذا كان علم التاريخ ضروريا للدراسة الخاصة والعامة ، ولثقافة الشعوب عامة فلا بد من بحث دراسته وكتابته قبل ان يدرس في المدارس والمعاهد وقبل ان يقدم للمختصين وللمثقفين على السواء .

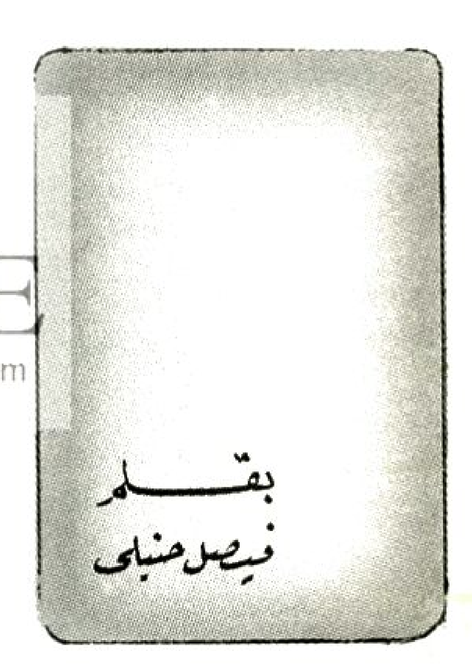
والتاريخ لا يدرس عفوا ولا يكتب اعتباطا ، وليس كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخا كما يتصور بعض الناس او كما يتخيل بعض الكتاب ، حينما يسطرون صفحات

تدل على نضج عقلية المؤرخ وثقافته الواسعة وخبرته ، بعكس كثير من الكتب التي تنسب للتاريخ ظلما والتي يكتبها من لايفهم التاريخ . وتصبح مثل هذه الكتب غير جديرة باسمائه .

والتاريخ الاسلامي الموجود اليوم في صورتين :

اولا — صورته في المصادر العربية القديمة والتي تسمى تاريخا وهي لا يمكن ان تحمل هذا الاسم لانها نثار من الحوادث والوقائع والحكايات وان كانت بعد ذلك كله ثمينة كمصدر تاريخي بالمواد الخام التي تسعف من يريد الدراسة .

ثانيا — صورته في المصادر



الاوروبية وبخاصة في اعمال المستشرقين وهي تعتمد في جملتها على المصادر العربية القديمة . وهي على ترتيبها وتنسيقها بتلك السمات التي لا تطمئن الباحث الواعي اليها .

وهي في احسن صورها دراسة لظاهر الحياة الاسلامية وخير ما فيها هو الجهد في جمع النصوص وتحريرها وتنسيقها والموازنة بين الروايات المختلفة من ناحية السند الخارجي لا من ناحية الادراك الداخلي . وهناك اجزاء لم تتم من صورة ثالثة للتاريخ الاسلامي فهي :

اولا — تتبع المنهج الغربي في صميمه دون زيادة ، وهي ثانيا تستمد عناصرها من الدراسات الغربية في الغالب ، وهي ثالثا متأثرة بالايحاءات الغربية من ناحية زاوية الرؤية . فهي لا تقف في المركز الاسلامي لتطل منه على تلك الحياة لانها ليست من القوة والاصالة بحيث تجد نفسها في خضم الثقافات الغربية لتفهم الاسلام بعقليته الاصيلة . والعقلية التي تحكم على الحياة الاسلامية ينبغي ان تكون في صميمها اسلامية مشربة بالروح الاسلامي لكي تدرك العناصر الاساسية في هذه الحياة وتحسها وتتجاوب معها فتكتمل كل عناصر التغير والتقدير .

والتاريخ العربي عامة تبتدىء جذوره منذ الجاهلية وهي مؤلفة من قصص العرب والاحداث الطبيعية التي حصلت في الجزيرة العربية كخراب سد مارب ، كذلك عن القبائل القديمة كعاد وثمود والاخبار عن حروبهم وانساب قبائلهم فحاكوا حولها الاساطير والاخبار فأصبحت مزيجا من الحقيقة والخيال .

والخطوة الثانية في زمن الرسول محمد (ص) حيث اضيف الى ذلك عامل جديد هو شخصية الرسول الكريم ، ومن ثم الثورة الدينية والاجتماعية والحضارية التي جاء بها الاسلام وكذلك اقوال الرسول الكريم وافعاله ثم اخبار الفتوح والمغازي ، وبذلك امتزج التاريخ بالدين الجديد .

ثالثا — زمن الخلفاء الراشدين حيث سيرة الرسول الكريم (ص) طاغية على مجرى الحياة عامة ولم تظهر محاولة لتأريخ اعمال فتوحاتهم اذ كانوا مشغولين بخلق تاريخ جديد لا تأريخ الاحداث الجارية ..

رابعا — في العهد الاموي بدأ العرب المسلمون بتأريخ تاريخهم ولم ينضج التاريخ الا في العصر العباسي وقد ضاعت بعض المؤلفات التي ارخت في العصر الاموي بسبب نقمة العباسيين على الامويين فيما بعد ، وبسبب الثورات والحروب .

خامسا — في العصر العباسي الى اخر عهد المماليك وضعت اهم مؤلفاتنا التاريخية .

سادسا — العصر العثماني كان عصر ركود .

سابعا — في العصر الحديث تجدد الفكر العربي والتاريخ العربي متأثرا بالاحداث المعاصرة فقد بدأ المستشرقون بالبحث والدرس ونشر ثقافتنا وحضارتنا متبعين المنهج الغربي وذلك لان الاوربي بطبيعته ميال الى اعتبار اوربا هي محور العالم فهي نقطة الرصد في نظره ،ومن هذه الزاوية ينظر الى الحياة والناس والاحداث . ومن هنا تتخذ في نظره اشكالا معينة ليس من يملك الجزم بانها اصح الاشكال وهو يدركها في هذه الاوضاع ويفسرها ويحكم عليها كما يراها .

وفي كتابة التاريخ الاسلامي يجب ان تكون هذه الكتابة مستمدة اولا من المصادر العربية وهي المرجع الاول ، والدراسات الغربية هي المرجع الثاني على ان ينتفع من هذا المرجع الاخير بتحرير النصوص وتنسيقها ، وببعض الموازنات بين شتى الروايات من جهة السند فبقية العمل يجب ان تكون ذاتية بحته . غير متأثرة الا بمنطق الحوادث ذاتها بعد ان يعيش الباحث بعقله وروحه وحسه في جو الاسلام . والمصادر هي للمؤرخ كالمختبر للباحث في العلوم الطبيعية .

ومن الاسباب التي حملت العرب المسلمين على تدوين تاريخهم :

اولا — رغبة العرب المسلمين في معرفة ماضيهم وحفظهم اياه ، وهو سبب منتشر بين الامم المختلفة .

ثانيا — تأثير شخصية الرسول

اهمية علم التاريخ

الكريم واهتمام المسلمين بأخباره وأحاديثه التي كانوا يستندون عليها في تنظيم حياتهم الخاصة الدينية منها والمدنية .

ثالثا — الرغبة في تحقيق الانساب. كان اهتمام العرب بانسابهم كبيرا منذ اقدم العصور فكانوا يحفظونها ويتناقلونها ويتفاخرون بها وكذلك استمرت هذه الرغبة الى ما بعد الاسلام واضيفت الى مفاخر العرب في الجاهلية مفاخر جديدة اسلامية ممن كان لهم سبق الجهاد وفضل الشهادةفي ايام الاسلام الاول والقرابة للرسول الكريم ، وكان يترتب على ذلك ايضا العطاء اولى بالنسبة الى القرابة للرسول الكريم او السبقة في الاسلام والجهاد تحت راية الاسلام وقد قوي هذا الامر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي نظم طريقة الاعطياتفكان هذا دافعا لكثير من المسلمين على ان يحفظوا صلتهم وانسابهم بغية الغنم المادي بالاضافة الى الغنم المعنوي .

رابعا — رغبة الخلفاء الراشدين في سماع اخبار الامم الماضية . وهذا طبيعي لان الخلفاء كانوا حديثي العهد بالسياسة والحكم فرغبوا في معرفة اخبار الامم العريقة في الملك والحكم وليقتبسوا منها ما كان يناسبهم .

خامسا — النزاع السياسي بين الاحزاب والفرق الاسلامية المختلفة ولا سيما العرب والعجم بعد ان قامت حركة الشعوبية وكذلك كانت الفرق الاسلامية المختلفة السنة والشيعة والخوارج فحرص على حفظ ذكرها الماضي واعمالها وتاريخها .

سادسا — الرغبة في كسب عطف امير او ملك او وزير بغية الحظوة عنده والربح المادي منه كأبن الطقطقي الذي قدم كتابه الفخري في الادب العربي القديم ، هي بالفعل مليئة باخبار العرب وحوادثهم وسير رجالهم .

سابعا — الرغبة في فهم الادب العربي القديم ، فجمعوا اشعارهم وحكمهم وامثالهم اضطروا الى تفسيرها لفهمها وان هذا التفسير يجرهم الى جلاء الحوادث التاريخية اذ ان كتب الادب العربي القديم هي بالفعل مليئة باخبار العرب وحوادثهم وسير رجالهم .

ثامنا — تطور الحياة الجديدة لقد كانت معاملاتهموتنظيمهم يضطرهم الى معرفة طريق افتتاح البلاد . لان معاملة البلاد المفتوحة كانت تتوقف على كيفية فتحها . والضرائب المفروضة على بلد ما كانت تختلف باختلاف طريقة فتح العرب له فيما اذا كان هذا الفتح حصل صلحا ام عنوة .

تاسعا — نضج الحياة العقلية والادبية ، لقد كان العصر العباسي عصر نضج الحياة العقلية والادبية خاصة وحيث اثمرت تلك الحياة وازدهرت العلوم العربية على اختلافها ، كان التاريخ نصيبه من هذا الازدهار .

عاشرا — هناك سبب اخر نص عليه بعض المؤرخين القدامى ، هو طلب الثواب في الآخرة مع الفائدة العلمية من التاريخ في الحياة الدنيا .

هذه هي الاسباب المختلفة التي دفعت المسلمين لكتابة تاريخهم فان التاريخ الاسلامي لا يمكن فصله من التاريخ الانساني ، وقد تأثرت تلك الفترة من غير شك بتجارب البشرية كلها من قبل وبخاصة تلك العوامل التي كانت واقعة عند مولد الاسلام ، ثم اثرت بدورها في تجارب البشرية من بعد وبخاصة تلك الجهات التي امتدت اليها او جاورتها .

لقد كان علم التاريخ الاسلامي في كل العصور وثيق الارتباط بالتطور العام للحركة الفكرية الاسلامية ، وكانت مكانة المعرفة التاريخية في التربية الاسلامية ذات اثر حاسم في المستوى الفكري للكتابة التاريخية . ان تبدلات التاريخ الاسلامي يمكن ان تفهم فهما جيدا اذا عرضت ضمن النظام العام للثقافة الاسلامية .

وان نمو الحضارة الاسلامية من اروع الاحداث في تاريخ الفكر الانساني وسيبقى مثار اعظم الاعجاب ولكن اعتبار هذه الحضارة امرا غامضا او معجزة ولعلها كانت معجزة من حيث حدوثها بسرعة عجيبة لدرجة انها كملت بعد بدئها بوقت قصير .

والواقع ان المكانة الحقيقية للتاريخ في التربية الاسلامية كانت دائما في التربية الابتدائية فقد كان التاريخ موضوعا عرضيا للتعليم في المدارس وكان دائما بشكل من الاشكال ، مادة القراءة ، المفضلة عند الاولاد وعنصرا مهما في تكوينهم الفكري وطابعهم الشخصي .

ان نظرة عابرة الى الدور الهام التي لعبته كتب التاريخ في التكوين الفكري للاولاد نجدها في الترجمة التي كتبها عن نفسه العالم اليهودي السموال بن يحيى المغربي الذيعاش في القرن الثاني عشر واسلم في آخر حياته حيث يقول :

« ولما كنت بين العاشرة والثامنة عشرة جذبتني اخبار التاريخ وحكاياته واشتدت رغبتي في قراءة ما حدث في الازمنة الغابرة وفي معرفة ما تم في العصور الخالية ، فقرات مختلف مجموعات القصص والحكايات ، ثم انتقلت منها الى الحكايات الطويلة المسلية ثم الى القصص الطويلة كقصة عنترة وذي القرنين وطرفة بن الوزان وغيرها وبعد ان قرات هذه الكتب تبين لي ان معظم ما فيها مأخوذ

من كتب المؤرخين ، فبدات ابحث عن اخبار التاريخ الصحيحة واهتم بها فقرات كتاب ابي علي بن مسكويه الذي سماه « تجارب الامم » كما قرات تاريخ الطبري وكتب التاريخ الاخرى فتعرفت منها على اخبار الرسول وغزواته والمعجزات التي كرمه الله بها . » لقد كان السموال شديد الاعجاب بالنجاح الباهر للرسول وانهيار الجيوش الفارسية والرومية العظيمة ، ومهارة ابي بكر وعمر وعدالتهما ، فاذا كانت سجلات الماضي لها مثل هذا التاثير على يهودي لا علاقة له بذلك الماضي فكم يكون اثر المؤلفات التاريخية في الاسلام اذ ساعدت على شدة التمسك بالتراث الديني والثقافي للاسلام . وعلى قوة الحماسة في حياة الفرد وفترة من العمر تكون فيه المؤثرات الفكرية الاخرى اقل اثرا .

لقد كان لتعليم التاريخ مكانة خاصة في تربية اولاد الامراء ، وكان كل رجل طموح يوصي بـ « تعليم التاريخ وتدارس السيرة وتجارب الامم » كما ان دراسة التاريخ كانت خير وسيلة لتعليم الحكمة السياسية لمن يؤمل ان يكونوا حكاما في المستقبل.

ولم يكن دور التاريخ في تربية الامراء امرا عفويا بل كان وثيق الصلة بالتقاليد الشرقية التي تحث على التاريخ كمصدر رئيسي للالهام السياسي للملوك والحكام . وقد ظل هذا التقليد حيا في الاسلام .

وقد روى ان مكتبة الفاطميين في مصر كانت تضم الفي مجلد منها الف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري وغيره من كتب التاريخ ، ولعل في هذه الارقام مبالغة كبيرة ولكنها تبين الاهتمام الذي يؤمل من الحكام في كتب التاريخ .

وان معرفة التاريخ بدات تنساب من اعلى طبقات المجتمع الى كافة طبقات الموظفين والعلماء ومن كانوا يريدون ان يكونوا مهذبين ، لقد اصبحت معرفة التاريخ سمة الثقافة العامة وظلت كذلك حتى العصور الحديثة . وقد استطاع بعض الوزراء ان يكتبوا كتبا عن ذكرياتهم الشخصية للاحداث التاريخية التي ساهموا فيها وكان بعض الوزراء قليلي المعرفة بالعلم كالفضل بن مروان وزير المأمون والمعتصم . على ان تلك نتيجة رائعة مدهشة لمثل هذا الجهد الضئيل . فالجهد المبذول بكتابة اقل دون شك مما يتطلب اجتياز مرحلة الدراسة الثانوية اما النتيجة فهي بمقدار لا تعادله اية شهادة جامعية سوى درجة الدكتوراه في التاريخ .

(للبحث بقية)

فيصل حنبلي

المصادر :

- علم التاريخ عند المسلمين : فرانز روزنثال
- تاعت بحث عباسي : د. زاهية قدوره
- منهج البحث التاريخي : د. حسن عثمان
- في التاريخ فكرة ومنهاج : سيد قطب .